الرمز والإبهام في رواية الغريب لـ "ألبير كامو"

الأستاذ الدكتور عبد القادر توزان
البريد الإلكتروني: touzaaek@gmail.com
جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف / الجزائر

الملخص:

تناول المقال بالدراسة الرمز والإبهام في رواية "الغريب" لـ "ألبير كامو". وتوزع البحث على المحاور الآتية: عرّفنا بداية برواية "الغريب" وبأهميتها وشهرتها في الأدب العالمي. ثم تعرضنا بالدراسة إلى الإيحاء الفلسفي الذي اشتملته الرواية كطرح لفلسفة الكاتب (فلسفة العبث) لنعرج إلى الحديث عن اللامبالاة والقدر من بين صفات "مرسولت" بطل الرواية والتي جعلت منه إنسانا مبهما. وتعرضنا بالدراسة بعدها إلى اعتقاد بطل الرواية بالحس المادي، ومرة أخرى كرجل بدائي لا يحسن لعبة الرياء الاجتماعي. وكما أخذت العادة والتعود كموضوع فلسفي يتصل بالإنسان، قسطا وافرا من شخصيات الرواية عموما، فقد كانت الأسماء هي الأخرى تحمل أسرارا وإشارات غامضة ومشفرة من "كامو" وحاولنا من خلال هذه الدراسة الكشف عنها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: الغريب، الرمز، الإبهام، فسلفة، العبث، الإنسانية.

الملخص باللغة الأجنبية:

Cet article de recherche a été conçu pour traiter du symbole et de l'ambiguïté, deux caractéristiques par lesquels l'œuvre romanesque de Camus a été toujours reconnues. Cette étude se résume en quelques points comme il suit :

On a présente en quelques lignes « l'Étranger », un grand roman du rang Nobel, universellement connu. Au second point, on a traité les différents reflets philosophiques de '' l'Absurde '' (philosophie de Camus), dont presque la totalité de ses personnalités romanesques se trouvent imprégnées. Puis au point suivant, on s'est arrêté sur le fatalisme et l'inattention de Meursault (Héros du roman), dans ses faits et gestes qui s'avèrent ambigus et incompréhensibles pendant tout le long récit du roman. Ensuite vint l'étude de l'esprit purement matérialiste de Meursault, puis son comportement comme un homme primitif, un homme innocent loin de toute hypocrisie ne sachant pas jouer le jeu de sa société.

Les derniers points encore ambigus ont été réservés à expliquer l'habitude philosophique chez l'homme, comme la voyait Camus, et élucider le symbole de certains noms attribués par Camus à ses héros, afin de nous transmettre certains messages, déjà cachés pendant toute sa vie dans sa mémoire.

الكلمات المفتاحية باللغة الأجنبية: L'Étranger, Symbole, Ambiguïté, philosophie de l'Absurde

عالمية رواية "الغريب":

تمّ نشر رواية "الغريب" أول مرة بدار "جاليمار"(Gallimard) سنة 1942م. ولقيت هذه الرواية رواجاً واسعا وشهرة منقطعة النظير لتقترن في أذهان الباحثين باسم "كامو"، حتى أصبح يُكنى بصاحب "الغريب"، وتُرجمت في خمس وعشرين دولة[1].

كما نشرت منها ملايين النسخ بمختلف اللغات العالمية[2]. ولعلّ من أهم أسباب نجاح الرواية، أنّها ظلّت تطرح مشاكل إنسانية بالرغم من قدمها، لازالت تقلق الإنسان إلى اليوم. وصادف هذا الطرح ملاءمتها لمصائب الحرب العالمية الثانية وما لحق أوروبا من دمار، وما تبعها من إحساس قاتم وضياع. وفي أسلوب جديد، زاوج فيه بين بساطة الكتابة لدى "همنجواي"(Hemingway) والطرح الفلسفي عند "فرانتزكافكا" (Frantz Kafka)، استطاع به "كامو" أن يؤثر في الدارسين والقراء على السواء، ليستهوي ميولاتهم ويدفعهم إلى التفكير فيما جاء بها من رمزية وإيحاء وإبهام. وتعود هذه الاستجابة في التأثير إلى غمرة الإعجاب المتزايد بالرواية، والتي جعلها تطرح نفسها منذ منتصف القرن الماضي إلى اليوم. ولهذه الأسباب وغيرها ... رأى بعض الدارسين أنها أجود رواية من حيث التأثير والإقناع، وأحسنها بناء في الأدب العالمي[3]. أما "سارتر" (J.P.Sartre) فله رأي آخر ينمّ عن موقف دهشة وإعجاب: «وفي وسط الإنتاج الأدبي لعصرنا، كانت هذه الرواية ذاتها غريبة»[4].

وقد حظيت الرواية بمائات الدراسات المختلفة التي لا زالت تتوالى حول مضامينها إلى اليوم، كما أدرجت للدراسة والبحث ضمن البرامج الدراسية في معظم دول العالم. وبالرّغم من تعداد الدراسات الهائل لهذه الرواية، إلّا أنّ الكثير من محتواها لا زال مبهما منذ صدورها إلى تاريخ اليوم وذلك لمزاوجة الكاتب فيها بين الإبهام الفلسفي والرمز والإيحاء المعنوي. وفي استجواب صحفي لـ "كامو" بشهور قليلة قبل وفاته، طرح عليه سؤال حول رواية "الغريب" مفاده: "هل تعتقدون أن النقاد الفرنسيّين قد اغفلوا شيئا في دراساتهم لأعمالكم"، فأجاب "كامو" أنها لم تستطع الوصول إلى ذلك الجانب المظلم، ما هوأعمق وحدسي في أعماقي..."[5].

أحاطت الرواية بكثير من الموضوعات، وبالرغم من بساطة لغتها وشعرية أسلوبها، تبدو رواية معقدة، زاوج فيها "كامو" بين الفكر الفلسفي والإيحاء عن طريق الرموز المختلفة التي استقام عليها البناء الروائي، فاحتملت التأويل واختلفت الآراء حول رموزها، وأبى الكاتب أن يفصح عن معمياتها لأسباب سيأتي ذكرها إلى حين يأخذه الموت على حين غرّة على إثر حادث مرور.

الإيحاء الفلسفي في رواية "الغريب":

لا ينكر إثنان أن "الطاعون" و"الغريب" روايتان ذات بعد فلسفي أسّس له "كامو" قبل ذلك في مقالاته الفلسفية "أسطورة سيزيف" (Le Mythe de Sisyphe) و"الإنسان المتمرد"(L'Homme révolté). ويؤكد هذا الاتجاه الفلسفي في العمل الروائي لدى "كامو"، ما ورد في يومياته سنة 1936م بقوله: «لا تفكر إلا بالصور، وإذ أردت أن تكون فيلسوفا عليك بكتابة الروايات»[6]، فالرواية في حديثه مع نفسه هي مجموعة من الصور والمواقف التي عايشها أو عاشها في حياته، والتي يوظفها الكاتب حتما في تعبيره عن أفكاره الفلسفية التي تعج في ذهنه وتدفع به دفعا

إلى الكتابة والإبداع والصور والمواقف التي يتحدث عنها "كامو" ليست وحيدة الخيال واللاحقيقة، وإنما هي مستمدة من واقعه المعاش والمسجلة في دفاتر أيامه كما عبّر عن ذلك غير مرة في تصريحاته هنا وهناك. وكان قد أشار صراحة إلى أن أبطال روايته هم صورة لشخصه وبعض من عرفهم في حياته، وأن الموضوعات التي تناولها في رواياته لا تختلف عن تلك التي كانت تشغله في حياته[7].

حوت هذه الرواية موضوعات إنسانية متعدّدة وجوانب فكرية مختلفة لفلسفة الكاتب، تبرز في مجملها صفات يتميز بها الإنسان العبثي[8].

اللاّمبالاة والقدر:

ونبدأ بأولى هذه الصفات، وهي اللامبالاة، تلك اللامبالاة المصحوبة بصمت "مرسولت" (Meursault) بطل الرواية، ذلك الصمت الذي كان يؤثره دائما على الجهر بالقول منذ البداية حتى النهاية. وهذه اللامبالاة عند الكثير من الدارسين هي غموض في حد ذاتها، ويذهب بعضهم إلى أن «كل جزء من النص، يسوده عنصر الإبهام، ولكي ينتقل القارئ من هذا إلى ذاك، وجب عليه أن ينفذ من خلال جسر شفّاف كثيف ظلّ يخفي الحقيقة الدقيقة وراءه»[9]. ولعلّ صمته ولامبالاته فيهما ما يوحي من الكاتب إلى أنّ الأحداث أصبحت خارجة عن نطاق تصرف "مرسولت" الذي لم يكن بوسعه أن يغيّر منها أو يؤثر فيها، وأصبحت بذلك قدرا في قدر.

وتُمثّل هذا القدر التعيس، تلك الشمس التي دفعته إلى قتل العربي، حين أُعدم حرية التصرف وأصبح كأنه لا يتحكّم في شيء. ولما كانت الأمور تسير خارج إرادته، فما جدوى المعارضة وهو موقن بمصيره المحتوم؟.

تكررت عبارة: «ليس هذا ذنبي»[10] عدة مرات بالرواية إشارة من الكاتب إلى أن "مرسولت" رجل بريء. وكذلك قوله: «يبدو لي وعلى نحو ما، أنهم يناقشون القضية بعيدا عني، كل شيء كان يتم دون أن أتدخل، بدأ مصيري هنا ينفّذ بدون الإدلاء برأيي»[11]. وفي قوله هذا من الإيحاء، ما هو فقدان للحرية واستسلام للقدر. ويعبّر عن هذه المرحلة أحد الدارسين بما يطلق عليه بالانفصال عن الواقع اللامفهوم، وكأنه فقد سيطرته فيها على مجرى الأحداث[12]. والقدر عند "كامو" مختلف عما هو عند "سوفوكليس" في مسرحية "أوديب" (œdipe)، حين استسلم للقدر بالفعل القبيح مع والديه أحدهما بالقتل والآخر بالرذيلة. بينما نجد لـ "كامو" موقفا آخر من القدر، فـ "مرسولت" رجل لا يرضى بالذل والخضوع لهذا القدر، بل يواجه الموت (القدر المحتوم) باللامبالاة والاعتزاز والتحدّي كما فعله الإنسان المتمرّد عبر التاريخ[13].

الاعتقاد بالحس المادّي:

ومن مظاهر الترميز والإيحاء، تكرار العدد "خمسة" عدة مرات في الرواية. استعمله أول مرة وهو يشير به إلى خمس طلقات يقتل بها البطل الروائي "مرسولت" ذلك العربي. وكرّره مرة أخرى حين أخبره أحد حراس السجن بأنّه مضى عليه خمسة شهور بالسجن. وكذلك عن سؤال طرحه "مرسولت" على أحد عمال الملجأ، راح يجيبه أن مرّ عليه خمس سنين عاملا بالملجأ[14].

فالرمز للعدد "خمسة" هنا لا يبعد أن يكون تعبيرا عن حضور **الحواس الخمس** وتأثيرهم القوي في شخصيته وفي مجرى حياته. ويؤكد ذلك في نظرنا موقف "مرسولت" اللامبالي من تقاليد المجتمع وأخلاقه، كذلك كانت أخلاقه مع أمه ومع عشيقته، فهو إنسان معدوم العواطف لكنه قوي الإحساس، وهذا ما تثبته المحكمة وتستند عليه في الحكم بإعدامه، كما تثبته مرة أخرى تصرفاته مع أمه وماري (Marie). ويبقى الإحساس بالمتعة الجسدية عند "كامو" هو أساس كل علاقة بين الرجل والمرأة. وتفسر ذلك: إجابته لـ "ماري" حين جاءت تسأله إذا كان يحبها ويريد الزواج منها: «وفي المساء جاءت "ماري" عندي وطلبت مني إذا كنت أرغب في الزواج منها، وأجبتها أن هذا لا يعني شيئا، إلا أنه بإمكاننا أن نتزوج إذا كانت ترغب في ذلك. حينئذ، أرادت معرفة إذا كنت أحبها، فأجبتها مثلما فعلت مرة من قبل، بأن هذا لا يعني شيئا، و أنني لم أكن أحبها دون شك؟»[15]. وبهذا يكون "مرسولت" رجلا غريبا؛ لأن الإنسان العبثي لا يعرف معنى للحب ولا مكان لديه للعواطف، ولأن عالمه هو الأرض وليس سبيله إلى ذلك سوى الحس. وربما أكد هذا الرأي "سارتر" بقوله: «أن "مرسولت" يفكّر ويتصرّف باختلافنا، إنه لا يريد أن يعترف بعواطفه المتتالية والمتشابهة. الحب عنده معدوم وكذلك المحبوبون. والذي يهمّه هو الحاضر الملموس»[16].

الرجل البدائي ولعبة الرياء الاجتماعي:

ويرى "قمبر ماجد الطويل" أن موقف "مرسولت" من المجتمع، هو رمز للإنسان البريء الذي لا يحسن لعبة الرياء الاجتماعي[17]، ولما كان "مرسولت" يشبه الإنسان البدائي بتصرفاته، عجز حينئذ عن فهم المجتمع كما عجز المجتمع عن فهمه. وربما كان ذلك سببا في انتصار "كامو" لبدائيته مشفقا عليه ومدافعا عن براءته، معترضا على المجتمع بما وصل إليه من تعقيدات وتكتلات تجعله مضطرا لأن يختار صفا من صفوفها ليضمن بقاءه. وبناء على ما سبق، يصبح "مرسولت"، الرجل الممثل لجيل مريض بكامله ...[18].

وبهذه القراءة يصبح "مرسولت" الرمز الممثل للإنسان البدائي الأول الذي يرفض الانصياع لتقاليد المجتمع المعقدة بما تفرضه عليه من رياء ومجاملات والتي أفسدت عليه حتما حياته. والفرق هنا بين ما يذهب إليه صاحب هذا التفسير، وما ذهب إليه "كامو"، يكمن في أن الأول يعتبر "مرسولت" رجلا بدائيا متخلفا يكاد أن يكون جاهلا لأنه لا يدرك ولا يكاد يفهم أو يعي ما حوله من أخلاق وتقاليد أو قوانين اجتماعية، وبهذا يصبح مجبرا على ارتكاب هذه التصرفات التي لأجلها يعاقبه المجتمع ويحكم عليه بالإعدام. بينما الثاني وكما أوضحه "كامو"، نجد "مرسولت" واعيا لكل الأحداث التي أحاطت به منذ البداية، إلاّ أنه يختلف عن أفراد مجتمعه اختلاف الغريب عن أمة لا ينتمي لها بأدنى صلة. ولذلك يقدمه لنا رجلا يتصرف بوعي وبحرية مطلقة، ليدافع عن موقفه الشخصي المقتنع به والحر حتى النهاية.

العادة والتعوّد:

أخذت "العادة والتعوّد" حيّزا واضحا في روايته، فقد كان يركّز كل مرة على أثرها السلبي في حياة الإنسان، لأنها تقتل فيه الشعور بالإحساس وتجعله عبدا لها بتصرفاته. فـ "مرسولت" الإنسان، بمجرد دخوله السجن، أصبح بمرور الأيام عديم الإحساس بالألم وبالعذاب، ليفقد معنى الحرية بعد ذلك، ويصل في الأخير إلى مرحلة فقدان الإحساس بالزمن ليعيش خارج الزمن ذاته. كما نجده مرة أخرى في موقف آخر قد ابتعد عن عاداته القديمة التي أصبحت تنوب منابها

عادات أخرى: «كانت الأيام الأولى هي أصعب أيامي بالسجن، كنت أمتص فيها قطع الخشب التي اقتلعتها من سريري. كنت أتجوّل يوميا في غثيان لا ينتهي، لم أكن أفهم لماذا حرمت من شيء لا يضر بأحد، لقد فهمت أخيرا أن ذلك جزء من العقوبة. وعندما تعوّدت على الابتعاد عن التدخين، أصبحت هذه العقوبة لا تعني عندي شيئا»[19].

والتعوّد على الحرمان من ممارسة عاداته وحريته، يدفع به إلى التعوّد مرة أخرى، إلى العيش خارج الزمن على طريقة كان قد تعرّف عليها في مطالعاته: «لقد قرأت كثيرا أنني سأصل إلى فقدان عنصر الزمن ... وتفقد الأيام اسمها»[20]. وكرّر الإشارة إلى العادة والتعود وهو يتحدّث عن أمه الّتي كانت تقضي آخر أيامها بالملجأ حين يقول: «وفي الأيام الأولى من دخولها إلى الملجأ، كانت تقضي وقتها باكية في أغلب الأحيان، ولكن هذا يعود دون شك إلى العادة. وبعد شهور، كانت لا بد أن تبكي لو أطلق سراحها من الملجأ، والسبب في ذلك هو التعوّد»[21]. كما أشار إلى التعود مرة أخرى حين حدّثنا عن جاره "سالامانو" (Salamano) الذي راح يشتكي له من فقدان كلبه: «قلت للعجوز "سلامانو" أنه باستطاعته أن يستعيض كلبه بآخر، إلا أنّه كان محقا حين أفهمني أنه تعوّد على كلبه»[22].

والتفسير الأولي لمدلول العادة لدى "كامو" هو التحكم الواضح للعادات في مجرى حياة الإنسان إلى حد الاستعباد، لتجعل منه أسيرا لحياته الآلية الرتيبة، وهو ما أشار إليه في حديثه في مقالات "أسطورة سيزيف"، حيث يرى أن الإنسان يقضي حياته في آلية باستمرار إلى أن يباغته الإحساس فجأة بعالم لا يمكن عقلنته.

أمّا عن مدلول العادة والتعوّد هنا، فهي لا مناص أن يدلّ بها عن ظروف ظلّ يكابدها الكاتب في حياته. فقد عُرف "كامو" بمعاناته طيلة حياته من مرض السّل الذي أصابه ذات يوم وهو في طريق عودته من مقابلة شاقة في كرة القدم وهو بعد يافع صغير، والذي زاد الطين بلة في هذا الصدد، ولوعه بالتدخين إلى حدّ الإدمان، وما أنفك الأطباء ينهونه عن تعاطي هذه المادة السامة خوفا من تفاقم مرضه، لكن دون جدوى، إذ لم يتوقف عن التدخين إلى آخر يوم من حياته.

وبناء على الإشارة السابقة، بأن "كامو" كان يوظّف شخصياته الروائية من الحياة العامة ليستنطق الأحداث ويستخلص منها الدروس والحكمة والعبر، وجدنا مرّة أخرى ما يؤكّد هذا الاتجاه من خلال تصريحه: «دخل ثلاثة أشخاص في تكوين "الغريب": "رجلان،أحدهما أنا وامرأة"»[23].

رموز الأسماء في الرواية:

وننتقل الآن، إلى موضوع آخر وهو الكشف عن رموز بعض أسماء شخصياته بالرواية. فقد سبقت بالكتابة رواية "الغريب" رواية أعرض عن نشرها، أطلق عليها: "الموت السعيد" (La Mort heureuse)، والتي يجمع الباحثون على أنها بمثابة لبنة تأسست عليها رواية "الغريب". فقد عثر في مسوداته محاولات متتالية لصياغة اسم سيطلقه لاحقا على بطل رواية "الغريب".

ومن ذلك إشارة أحد أصدقائه إلى أنه كان يكتب بجريدة "الجزائر المسائية" (Alger Soir)، هذا **الاسم الرمزي** ليوقّع به مقالاته الصحفية آنذاك. فقد كان توقيعه بها على هذا الشكل: "Mersault" بمعنييه: الشمس

والبحر "Mer-soleil"، ولم يضف له حرف (U) إلا في مرحلة متأخرة من كتابة الرواية[24]. ومن المعاني الأخرى التي قد تحويها كلمة (Meursault):

-(Meur): Meurt, Mort, Meurtre, mer, mure, mère.

-(Sault):Salut, sot, Solitaire, sol, Soleil.

والتي تقابلها بالكلمات العربية:

- (Meur): أم، مخاطر، بحر، قتل، الموت، يموت.

- (Sault): شمس، أرض، وحيد، غبي، خلاص.

ولهذه المفردات أثرها وصداها العميق في نفسية "كامو"[25]. فـ "مرسولت" بهذه المعاني التي تحتويها الكلمة، لا يبعد أن يكون الكاتب نفسه. وهو لا يختلف عن جميع الفرنسيين عشقا للشمس والبحر والطبيعة، فقد كان أحد المؤسسين إلى جانب "ايمانويل روبلس" (Emmanuel Roblès) لجريدة "ضفاف" (Rivages) و"غابرييل اوديزيو"(Gabriel Audisio) الذين اتخذوا من الكلمات الثلاثة الآنفة الذكر شعارا للجريدة وأحاطوها بشيء من التقديس في كتاباتهم. ونستشف مما سبق أن "كامو" أو "مرسولت" رجلان يمثلان شخصا واحدا يحب الشمس والبحر والطبيعة إلى درجة العبادة والتقديس.

وننتهي في تحليل هذه الشخصية إلى أن "مرسولت" ليس "كامو" فحسب، بل هو رجل يمثل جميع الفرنسيين الذين هاجروا إلى الجزائر من أجل الشمس، والذي لا يتردد لحظة عن قتل العربي من أجلها[26]. وهنا يصبح معنى الاغتراب واضحا وواقعا معاشا لحياة الفرنسيين واستعمارا ساخرا يمثله "مرسولت" والممثل لوجودهم وشعورهم بالاغتراب بالجزائر. أما محاكمة "مرسولت" والتي يعرضها الكاتب في شكل مأساة، فقد أقامها محكمة عادلة حين أنطق قاضيها بحكم الإعدام في حقّ المستعمر، ولكنّه ظل مشفقا من ناحية أخرى على الجاني حين اسودّت صفحات روايته بكاء وتبريرا لجريمته. فـ "مرسولت" في نظر الكاتب رجل يحب "الشمس"، وهو يتصرف بعفوية تامة، ويصبح بذلك إنسانا بريئا في نظر الكاتب وتتجلى براءته في أنه تعوّد على العيش في أرض ليست ملكه، وأنه ورثها من بعض أجداده ظلما وعدوانا، لكنه بعد أن أدرك الحقيقة وجد نفسه مضطرّا للتخلص من عاداته السيئة، عبثية الاستعمار بالجزائر، خلاصا بانتهاء أجله وملاقاة حتفه.

وفي مقدّمة لرواية "الغريب" المترجمة للإنجليزية، يؤكد "كامو" ما ذهبنا إليه من خلال حديثه عن "مرسولت": «يحكم عليه بالإعدام لأنه لا يحسن اللعبة، ويصبح بهذا المعنى غريبا عن المجتمع حيث يعيش، وهو يتسكع على الهامش في ضواحي الحياة الخاصة وحيدا، عبدا لشهواته. ولهذا فضل بعض القراء اعتباره إنسانا ضائعا ... ولو سأل سائل مثلا، لماذا لا يحسن "مرسولت" اللعبة؟، فالإجابة بسيطة: إنه يرفض الكذب. ثم أن الكذب ليس فقط القول بما هو ليس حقيقة، ولكنه القول بأكثر ممّا إلى الحقيقة. بالنسبة للقلب الإنساني، هو القول بأكثر مما نحس، وهذا هو الذي نقوم به كلنا وفي كل يوم من أجل تبسيط الحياة. إنه يقول الحقيقة، ويرفض إخفاء عواطفه، وهذا ما يجعل المجتمع يحس بالخطر. ويطلب منه مثلا أن يعترف بالندم على جريمته حسب العبارة المعروفة، ولكنه يجيب بأنه يحس في هذا المجال بأنه أكثر تعاسة وأكثر حزنا بدل الندم الحقيقي، وهذا الفرق الدقيق، هو السبب المباشر في إعدامه. أما "مرسولت" بالنسبة لي،

فهو ليس إنسانا ضالا، وإنما هو رجل فقير، عار، عاشق للشمس التي ليس لها ظلال، إنه إنسان حتى لو فقد عواطفه، فهناك حب عميق للحقيقة وللمطلق الذي ظل يغمره بقوة شديدة. ويتعلق الأمر هنا بحقيقة سلبية، هي حقيقة الوجود والإحساس، والذين بدونهما لن يتحقق أي انتصار كان على الذات أو على العالم. ولن نخطئ حينئذ كثيرا إذا قرأنا في "الغريب" قصة رجل بدون أي تصرف بطولي، يختار الموت من أجل الحقيقة. وقد سبق لي أن قلت أيضا ودائما في شكل متناقض بأنني حاولت تمثيل المسيح الوحيد الذي نحتاج إليه في شخصية "مرسولت"، وسيفهم بعد شروحي هذه بأنني قلت هذا بدون تعرض للإله، وأن قولي هذا جاء مفعما بالعاطفة مع قليل من السخرية التي يكون الحق للكاتب أن يعبر بها اتجاه شخصياته المبتكرة»[27].

أفصح "كامو" في مقدمته هذه عن أمور كثيرة تتعلق بالغريب، لكنه ظلّ يؤثر الرّمز والإبهام والغموض، وكأنّه يرفض بذلك النزول إلى المستويات المنحطة من القول حتى لا يفهمه أصحاب النفوس الدنيئة خشية الاعتداء والتحرّش به. ومن بين توضيحاته حول هذا الموضوع ذو العلاقة المباشرة بما ذهبنا إليه، قوله متحدّثا عن "مرسولت": «... **رجل فقير وعار، عاشق للشمس**»، ولم يكن هذا المعنى ظاهرا في الرواية، حين عمي بصره من الشمس الّتي أرغمته على قتل العربي. وقوله: «**فهناك حب عميق للحقيقة وللمطلق الذي ظل يغمره بقوة شديدة**» فقد لا يبعد أن تكون الحقيقة هنا هي الحكم بالإعدام على المستعمر، خاصة حين راح يكررها بقوله: «**"الغريب" قصة رجل بدون تصرف بطولي، يختار الموت من أجل الحقيقة**». وإذا عرفنا -كما أشرنا سابقا- معنى "مرسولت" ومن هو "مرسولت"، وما هي "الشمس"، استطعنا فك رموز الغريب خاصة فيما يتعلق بالجانب الحسّاس والأساسي والهام الذي كتبت من أجله هذه الرواية.

وتأكيدا لنظرتنا فيما ذهبنا إليه ونحن نحاول فك الرموز ودلالتها في أعمال "كامو" عامة وفي "الغريب" خاصة، ما ذهبت إليه "جرمان بري" (Germaine Bree) في دراستها لرواية "الغريب" حين راحت تتساءل مستغربة مما حدث في رواية "الغريب" بقولها: «أن "كامو" يقتل "مرسولت" بنفس ما دعانا به إلى حبه في (أفراح) (Noces) وفي (أسطورة سيزيف) (Le Mythe de Sisyphe)»[28]. وهو ما يؤكد الاستعمال الرمزي للشمس في روايته. فالشمس ظلت عنوانا للحياة والجمال للطبيعة بالجزائر، تلك الطبيعة التي ملأت كل أحاسيسه وقيّدته ليصبح عبدا مؤمنا بها في (أعراس Noces) و(الصيف) (L'été)، لتصبح عما قريب مصدر إلهامه الفلسفي. وليست الشمس في الأخير سببا يدفع بـ "مرسولت" الى ارتكاب الجريمة بأن تعمي بصره وتستولي على عقله حتى تأمره بقتل العربي، وإنّما هي تلك الشمس التي فتن بها الفرنسيون والذين وُجدوا بالجزائر من أجلها وكذلك البحر، ولا مناص حينئذ من قتل **العربي** الذي يرمز به للجزائري من أجلها، وكذلك يفعل المستعمر.

ويبدو أنّ استعمال الرمز وتوظيفه هنا وهناك في ثنايا الرواية، له ما يبرره لدى "كامو". ويعود ذلك في نظرنا لأسباب مختلفة، إذ ربما عاد ذلك لميوله الشّخصي وكما يحبّذ هذا المنحى كبار المفكرين عند الغرب. إلاّ أنّ السبب الحقيقي، يرجع في نظرنا إلى عدم ملاءمة مثل هذه الموضوعات الحسّاسة المتعلقة بالاستعمار وممارساته الخاطئة والدنيئة لأسلوب الإفصاح أو الواقعية.

واستعمال الرّمز دائما، وبطريقة ذكية لدى "كامو"، كان يحدث كل مرّة عند القرّاء والدارسين نوعا من الاختلاف وكثيرا من الغموض والإبهام. ونجد في هذا الإبهام السبب الكافي، وذلك بعد نصف قرن من وفاة "كامو"، الأمر الذي يدفع الكاتب الجزائري "كمال داوود" (Kamel Daoud) إلى كتابة رواية: (MEURSAULT,CONTRE-ENQUETE)،[29] التي يبدو فيها مقلدا لرواية "الغريب" في الشكل، لكنه متمرد تماما عمّا جاء في رواية "كامو" بما احتوته من مضامين. ويهمنا من هذه الرواية، أن حاول صاحبها فك بعض الإبهام الذي ظلّ يطفح على بعض شخصيات رواية "الغريب" عندما أطلق اسم "موسى" على "العربي" وأضاف شخصية جديدة: "هارون" ليستنطقه عن أخبار أخيه العربي. لأنه ربّما كان يرى أن كلمة "العربي" يحيط بها كثير من الإبهام والغموض وأن في ذلك ظلم وإجحاف في حقه من ناحية الرمز والدلالة[30].

لم يتناول "كامو" في روايته موضوعا واحدا فقط، ولكنه عرض مجموعة من الموضوعات يسير كل واحد منها بالتوازي مع الآخر. فقد تعرّض إلى طرح موضوعات فلسفية قديمة لكنّها بطريقة جديدة مثل الحياة، والموت، والعادة والتعود، والعدالة، والأخلاق الخ ... وانتهى إلى عبثية الوجود من خلال تصرفات "مرسولت"، الذي يظلّ وفيا لأخلاقه العبثية إلى آخر رمق من حياته لينتهي به المطاف أخيرا إلى النهاية المأساوية وهي الحكم عليه بالإعدام.

والموضوع الرمز الذي ربّما تمّ حَبْك الرواية برمتها من أجله، يبدو سياسيا في المقام الأول. فقد وظّف له الكاتب شخصيات كلها رموزا مثل: "مرسولت"، "الغريب"، "العربي"، "الأم"، كما وظف من الطبيعة رمزا آخر هو الشمس ...

والملفت للنظر في هذه الرواية حقّا، موقف "كامو" العادل تجاه موطن ولادته (الجزائر) وهو يحكم بالإعدام على "مرسولت" الرمز للاستعمار في هذه المرحلة المتقدمة من حياته. ولا يُستبعد أن تكون **"أمه"** التي يستهل روايته بالحديث عن وفاتها رمزا لفرنسا التي وجدها شبه ميتة في قبضة الاستعمار النازي الألماني آنذاك. وحدث ذلك إذ لم يمض طويلا على صدور "الغريب" حتى طرد "كامو" من الجزائر لينزل بباريس لخوض حرب إعلامية ضد الاستعمار الألماني، لتنشر مقالاته على صفحات جريدة (Combat).

والذي يدفعنا الى القول برمزية الأم لفرنسا، تصريحه وهو يجيب على سؤال طرحه عليه أحد المناضلين الجزائريين غداة استلامه جائزة نوبل سنة 1957 بـ "استكهولم" (Stockholm) بقوله: «... **لو طلب مني أن أختار بين أمي والعدالة، سأختار أمي**»[31]. (**فالعدالة** هي: "**قضية الثورة الجزائرية**" العادلة بشهادته، أمّا اختياره فقد يكون **لأمّه** حقيقة أو ربما كانت **أمه** رمزا **لفرنسا**)[32].

الهوامش:

1- Brian T.Fitch (1972), L'étranger d 'Albert Camus, Larousse, France, p.11.

2- Roger Quilliot (1981), Commentaire in : Essais, Introduction par Roger Quilliot, Textes établis et annotés par Roger Quilliot et L.Fanon (1970), Bibliothèque de la Pléiade, NRF (Gallimard, France, p.29.

3- Leo Pollman (1970), Sartre and Camus, Literature of existence, New York, p.125.

4- Jean Paul Sartre (1978), Situation1,Gallimard, Paris, p.92.

5- Ali Yedes, (2003), Camus L'Algérien, L'Harmattan, Paris, France,p.21.

6- Carnets1 (1962) , Mars 1935-Fev 1942, Gallimard, Paris, p.23.

7- Maillot Laurent (1973), A. Camus ou L'imagination du désert, Presses Universitaires de Montréal, Canada, p.04.

8- يعتبر كامو مؤسسا لفلسفة "العبث" أو "العبثية"، وقد أسس لها بمؤلفه: "أسطورة سيزيف" (1940). يقول "بيار نورا": "تعتبر هذه الرواية أحيانا تصويرا مجردا لنظرية فلسفية، وهي فعل مطعّم بتجربة تقترب من تجربة عاشها الكاتب". راجع:

Pierre Nora (1961), Les français d'Algérie, Julliard, Paris, p.92.

9- Brian T.Fitch (1968), Narrateur et narration dans L'Etranger d'Albert Camus, Archives des Lettres modernes , N°34, Paris, p.74.

10- Albert Camus(1983), L'Étranger, Gallimard, Paris, p.158.

11- المصدر السابق، ص.151-152.

12- Brian. T.Fitch, p.55.

13- Voir: Albert Camus (1983), L'Homme révolté, Gallimard, Paris.

14- Albert Camus (1983), L'étranger, pp15.125.

15- المصدر نفسه، ص.69.

16- Jean Paul Sartre, p.100.

17- ينظر: قمبر ماجد الطويل (1968)، الغريب لكامو، الأقلام، ج1، بغداد، ص.37.

18- المصدر السابق، ص.39.

19- Albert Camus, L'étranger, P.122.

20- المصدر السابق، ص.165.

21- المصدر نفسه، ص.125.

22- المصدر نفسه، ص.73.

23- Roger Grenier (1990), La Genèse de L'étranger, De: La Bibliothèque Nationale de France, Histoire d'un livre : L'Etranger d'Albert Camus, (Catalogue édité à l'occasion de l'exposition inaugurale présentée au Centre national des lettres à Paris du 13 Oct. au 09 Nov.) ; p.18.

24- Emmanuel Roblès, Jeunesse D'Albert Camus In (N.R.F), N° spécial 87…p.57.

25- Achour Christiane (1985), Un étranger si familier, édifions ENAP, Alger, ALGERIE, P.33.

26- المصدر نفسه، ص. 35.

27-Conor Cruise O'brien, Albert Camus (Les Lettres Modernes),Seghers ; pp23.28.

28 - الحفني عبد النعم، ألبير كامي، دار الفكر، القاهرة، (د.ت)، ص.270. راجع مقالات "كامو" الآتية في هذا الموضوع:

Albert Camus (1954), L'été.

Albert Camus (1942), Le Mythe de Sisyphe.

Albert Camus (1938), Noces.

29- Voir: Kamel Daoud (2013), Meursault, Contre-enquête, Editions Barzakh, Alger.

30 - اعتبر "كمال داوود" في حوار للقناة الفرنسية 2 (France2) في حصة:

(ON N'EST PAS COUCHE, Samedi 13 décembre 2014, 23h05).

أنه يفضل اسم "موسى" على "العربي"، الاسم الذي لا يمثل في نظره كل الجزائريين. أنظر:

https://www.youtube.com/watch?v=0CorXsfxJ_s.

31-كان هذا الحديث في تاريخ: 12 كانون الأول 1957م، ولم نتوصل إلى معرفة اسم السائل. وتشير الصحيفة وجميعه الطلبة الجزائريين بالسويد آنذاك في رسالة اعتذار بعثوا بها إلى "كامو" أنّه لا ينتمي إليهم، ولا يمثل أي منظمة جزائرية أخرى.

Voir : A. Camus (1981), Les Déclarations de Stockholm, in : Albert Camus, Essais, Bibliothèque De Pléiade, Gallimard, Paris, p.1882.

32- فاطمة الزهراء زيراوي، المؤثرات الأدبية في الرواية الجزائرية، رسالة ماجستير (مخطوطة)، جامعة بغداد كلية الآداب، (1982)، ص.39. التي تقول: "يرى الباحثون أنه كان يدافع عن فرنسا أمه الباغية ضد الثورة الجزائرية، القضية التاريخية العادلة".